

المستخلص

رؤوف عثمان معروف . محي الدين زنكنة روائيا (أطروحة دكتوراه) .- بغداد :
الجامعة المستنصرية : كلية الآداب : القسم اللغة العربية ، ٢٠٠٧

من خلال دراسة وتحليل روايات محيي الدين زنكنة، ومن خلال ماقطعناه من شوط طويل ونحن نستقرئ سماتها الفنية التي تكتسب خصوصيتها المتفردة ، توصل الباحث الى استنباط جملة نتائج وملاحظات نعرضها كما يأتي:

* اذا كانت الشخصية الروائية من العناصر البنائية المهمة التي تدور حولها الأحداث، فروايات محيي الدين زنكنة تؤكد كثيراً محوري الشخصية والحدث من بين العناصر البنائية الأخرى للرواية، إن معظم شخصيات زنكنة الروائية ينتمي الى الطبقات الاجتماعية الدنيا أو المتوسطة وهي ذات وعي فكري متواضع ، حيث تضم هذه الطبقات هموما اجتماعية وطبقية متقاربة حيناً ، ومتفاوتة حيناً آخر ، إذ لكل فرد تطلعاته وآراؤه ومواقفه الخاصة به. ففي روايته (هم ويبقى الحب علامة و (بحثاً عن مدينة أخرى) يدور معظم الأحداث حول البطل الرئيس، أما الشخصيات الأخرى فهي بين ثانوية في أدوارها أو مسطحة في الأخرى ، فأحياناً تقع هذه الشخصيات في صراع درامي مع البطل، وأخرى تخضع لهيمنة البطل المحوري الذي تدور حوله الأحداث وتتجاوزه منغصات الواقع، حيث يحتفظ بمساحة متحركة بينه ، وبين الشخصيات الأخرى.

فالشخصيات تمثل واقعها الاجتماعي وهمومها وتطلعاتها الانسانية ، ان نمو هذه الشخصيات مع الاحداث لم يكن متوازياً، بل ومتوقفاً أحياناً، ولم يرق نموها إلى مستوى الحالات الانسانية المتميزة ، لقد أفاد الروائي من المواقف والاحداث التي تثير الصراعات الدرامية بين افكار الشخصيات ، وبنى عليها أبعاد موقفه أزاء القضايا الانسانية الحساسة ، ويلاحظ الباحث ان محيي الدين زنكنة لم يوصد الابواب على مصائر شخصياته ، بل جعل نهايات رواياته مفتوحة امام تصورات المتلقي ، ليشارك بأحاساسه في صنع نهايات زاخرة متنوعة، باتجاه تصور القارئ المتفرد وتخيئه النوعي . أما في رواية (ناسوس) فتتوهج خصيصة البوليفونية (تعدد الأصوات) ، حيث الأبطال الجماعيون يلعبون بنسب متفاوتة أدواراً في صنع الأحداث وتحريك الواقع . فالبطل يتلقى الفعل أكثر من صنعه ، إذ ظل متبرماً من الواقع الاجتماعي، متوجساً من حركة الناس وأفعالهم، ولم يتمكن أن يلتحم مع منجزات حركة الواقع ومفرزاتها المتنوعة، بل وضع مسافة محددة، بينه وبين الواقع المعيش ، من جرّاء ردّ فعله الناقد على سلبيات الواقع وإرهاصاته المتعددة ، حيث غدا البطل عائماً في عالمه الخاص ، ان بعضاً من سمات البطل الفردية في روايات محيي الدين زنكنة يعكس الجانب النموذجي غير المتساق مع الواقع والظروف غير النموذجية .

* ان المكان الذي يستوعب احداثه الروائية يمتاز في معظمه بضيق المساحة ، ومحدودية الأبعاد ، إذ يعده الباحث مكاناً ممسرحاً ، كحجرة الدائرة وحديقة البيت ، والصالة ، والفندق والسجن... ، ان هذه الاماكن المحدودة لا تستوعب الاحداث الروائية الضخمة ولاسيما في روايته (هم ويبقى الحب علامة) و (بحثاً عن مدينة أخرى) ، كما ولانتحسس في هاتين الروايتين الرياض والقصور والاماكن العامة والساحات، لتضم الأفعال والحركات الانسانية الكبرى وتتوسع معها دائرة معلومات المتلقي، أما المكان في رواية (ناسوس) فمتحرك ويتضمن أحداثاً مهمة ومشاهد روائية متنوعة ، تمنح القارئ أفقاً من الحياة ، وأجواء رحبة تتسع لأحداث كثار .

إن إبراز فضاءات المناطق التاريخية الحية كجبل ناسوس ومدينة الحلة ، ثم العودة الى ثلاثة عقود لإبراز مقاهي أربيل ومحلة عين كاوه ، يمنح رواية ناسوس إنفتاحاً موضوعياً ، على أماكن روائية حقيقية ، تؤهم المتلقي بأهميتها وموضوعيتها .

* ان المواقف النفسية المأزومة والقلقة لأبطال رواياته تضغط بقوة على معظم الأماكن الأليفة والمفتوحة التي تجري فيها الأحداث، فتحولها الى أماكن مغلقة ومعادية، حيث بطل الرواية المأزوم ومسرح أمكنته المعادية يتعالقان حدًا يضفي على الرواية أجواء روايات كافكا وفوكنر العائمة، وتوصل البحث الى ان عنصر المكان في رواياته لم يساعد على تطوير شخصياته الروائية وتنظيم ابعادها البنائية، إذ لشخصياته افكارها ومنطقاتها النفسية والعاطفية الخاصة بها، ولا تتأثر في معظمها بالتحولات الجارية في الواقع .

* لقد اهتم الروائي بعنصر الزمن وأبدى مهارة وخصوبة خيال في تنظيم تقنياته وإبرازه في إطار ينسجم ويتألف مع حركة الرواية، فكل من روايته (هم ويبقى الحب) و (بحثاً عن مدينة اخرى) ، لايتعدى زمن أحداثهما الحقيقية يومين متتاليين، اما روايته ناسوس فزمنها الحقيقي لايتجاوز ست ساعات، ان قصر الزمن الطبيعي للرواية فرض على الروائي استنباط خطى السرد، عبر تقنيات المشهد والوقفه والاسترجاع الخارجي، حيث ان تحقيق فنية الاسترجاع منوط بتلاحمه مع حركة السرد الأول، وأداء وظيفته الفنية، فمحيي الدين زنكنة له قدحه المعلى في استعماله الارتداد، ولاسيما في رواية ناسوس ويلاحظ الباحث تأثر الروائي بتقنيات الفن السينمائي المتمثل في تقطيع خيوط الزمن ومعه المكان، فأفاد من التداعي الحر الذي يمنح المتلقي بعضاً من التشويق والمتابعة والانسجام مع الوقائع ولاسيما في رواية (ناسوس) . أما الاستشراق فنادر الوجود، إذ ان إنهماك الروائي بأحداث الحاضر ورد فعله المتوجس إزاء مخاطره يلهيه عن الاستشراق المبني على المنطق والتحليل، اما النزر اليسير الوارد في الروايات، فقامم على حدس أو أحلام يقظة أو أمنيات أو توقعات، ان هذه الاحوال لا تعد سرداً يُخطط أحداث المستقبل في صورة واقعية محتملة الحدث، إذ التنبؤ المبني على العقل الفني المتمكن يخطط لأفق مستقبلي واقعي .

* ان الاحداث الروائية عند محيي الدين زنكنة مزيج من الواقعية والذهنية المفترضة، لكن هيمنة البعد الذهني في روايته (هم ويبقى الحب علامة و (البحث عن مدينة اخرى) أوضح وأبين من رواية (ناسوس) التي تتسم أحداثها بالواقعية، إذ تنبض بالحركة والحياة وتجسد العوالم الانسانية بعواطفها واحاسيسها في اطار من الفنية. ان الايغال في عرض احداث ومونولوجات وحوارات مفترضة يجرّ المتن الروائي نحو الشكلية، ويبعد مجريات الأحداث عن سيرها الذي يتوقعها المتلقي، إذ يفتفي الخطى التي يحددها الروائي، ان هذه الحالة حق من حقوق الروائي الذي ينوي متابعة أفكاره وتصورات اتجاه الحياة والواقع، وإزاء ذلك يزداد اتساع المسافة بين المتلقي والروائي .

* ان الهم الروائي الاساس لمحيي الدين زنكنة منصبٌ على إبراز القضايا الانسانية الجوهرية المتمثلة في المساواة والعدالة الاجتماعية والحرية الانسانية، وخلص البشر من ربة العادات والتقاليد البالية المتوارثة، حيث يبحث عن عالم خال من هاجس الظلم والقسوة وإلغاء الآخر، لكن البحث عن ايجاد آليات مثلى تحقق معالجة هذه الهموم وعرضها بصورة منطقية، أوصل الروائي أحياناً الى بعض من المغالاة والمباشرة والوعظ والوضوح المخل بفنية الرواية، وإقلال لغة الأحياء الفني المثير للإحساس الجمالي عند المتلقي، علماً ان البطل بالإساس في روايتي (هم ويبقى الحب علامة) و (بحثاً عن مدينة اخرى) ينوء بحمل هموم الخلاص الانساني، في حين إن بعضاً من الشخصيات الأخرى يقف في الطرف الآخر .

* إن مهمة السرد في الرواية هي إبراز الأحداث التي تلعب الشخصية دوراً في صنعها او تحريكها او تحويل إتجاهها، يلاحظ الباحث ان التلوين السردى المتذبذب، بين الموضوعي والذاتي، ومحاولة التخلص من اسلوب القص الاحادي الذي يؤديه الراوي العليم ظاهرة فنية تتوهج في رواياته. لقد

حرر محيي الدين زنكنة سرده من الحكيم التقليدي واعتمد على الخطابات السردية المتنوعة والمتجاوبة مع سير الاحداث ولاسيما النسق المغاير، مع سير الأحداث. لم يترك محيي الدين زنكنة مجالاً مطلقاً للراوي ليستفرد بقصه وبرأيه حتى يهيمن على الفضاء الروائي كله، حيث تشاركه الشخصيات في إبداء ردود أفعالها وتحركاتها في إطار المسألة المخصصة لها، فالتناوب الفني المنظم بين خطاب الراوي والشخصيات الأخرى، يمنح الرواية حركة داخلية ينبثق منها تلازم القارئ المادة الروائية وإنسجامه معها، كما ووظف الراوي تقنيات السرد الأخرى كالسرد اللولبي، احساساً بأهميتها الفنية التي تمنح الرواية افقاً جمالياً يوازي مضمونها الانساني .

* يلجأ الراوي احياناً، لإغناء المتن الروائي وتنويعه وتطعيمه بمواد جديدة، الى تضمين مجريات الرواية الرئيسية بحكايات جانبية قصيرة، لتوازي حركة السرد الأول، وإغنائه لكن النتيجة تغاير المقصود، حيث لا يحصل التفاعل والإلتحام المفترضين، بقدر ما يثير ذلك التضمين إبعاد ذهن المتلقي عن الحدث الرئيس وإنهماكه بأحداث جانبية، تكاد ان تفقد القارئ إمساكه بخيوط أحداث الرواية الرئيسية، علماً أن روايات محيي الدين زنكنة من حيث مساحاتها المحدودة، وأبعادها الكمية تضيق بتلك الأحداث الجانبية ولا تستوعبها، فالنسق المعارض هذا، له اصول تراثية يغذي السرد الأول ويرد في إطاره، وتوظيفه يتطلب الدقة القصوى وإلا يأتي بنتائج تغاير المقصود .

* ان لغة الروائي تتنوع بتنوع الشخصيات والمواقف ، ففي مجملها ذات صياغة دقيقة جميلة تعكس قدرة الروائي الفنية المحكمة في توفير القيم البلاغية المنتقاة التي تعكس شخصية الراوي العليم أكثر من شخصيات الرواية الأخرى.

يلاحظ الباحث من خلال استقراءها النسج اللغوي لإسلوب الروائي ، ان جمالية هذا الاسلوب لا تضم معظم الحالات التي تناسبها ، إذ تطغى على بعضها الانشائية المسترسلة والبحث عن توفير القيم اللفظية وتزويقها وتنميقها .

ان هذا الاختلال بتوازن الأساليب العاكسة لأنماط الشخصيات الاجتماعية والثقافية لا يحصل، إلا عندما يتخذ الروائي وجهة نظر الشخصيات الروائية، عبر مكوناتها التعبيرية والنفسية .

* لم يحظ الوصف بكثير الاهتمام من قبل الروائي، ولاسيما الوصف الزخرفي الذي يزين الواجهات الخارجية من الأمكنة الروائية أو الأشياء، وأما ما ورد منه فهو تابع للسرد وفي خدمته عن طريق التداخل مع ألياته، إذ يفتقر الى الوقوف بوحده ، إلا ضمن العناصر البنائية الأخرى للرواية وإزاء قلة ورود الصورة الوصفية في روايات محيي الدين زنكنة، تكثر الصور السردية المفعملة بعرض الاحداث عبر إبراز بعض الصور، في حين لانجد الوصف الاستقصائي الذي يغطي أبعاد الموصوف بدقة متناهية ويستجلي مكوناتها الجمالية .

* يتكئ الروائي كثيراً على الحوار أكثر من توظيفه السرد، ولاسيما في رواية (ناسوس) ، ان ظاهرة الاكثار من الحوار امتداد لإبداعاته الكثيرة في مجال كتابة المسرحية واهتمامه بها إذ ان شهرة زنكنة وابداعه الثرفي مجال كتابة المسرحية تبرز مجالات إبداعه الأخرى ، فحواراته وسائل جيدة ومعتمدة للأشكال البنائية الحديثة، ومجال أمثل، لإبراز الأبعاد النفسية والفكرية لشخصياته الروائية ، لقد اكثر زنكنة من الحوار لأسباب تقتضيها الحاجة الفنية ، منها إبعاد هيمنة الراوي الذي يضعف من دور الشخصية، لإقحامه الفضاءات التي تجعل الشخصية تابعة لإمتدادات أفكاره ، كما وتؤدي حوارات رواية ناسوس الى إبطاء حركة السرد، إذ الزمن الروائي الحقيقي لأسوس لا يتعدى ست ساعات .

ان تردد أو مراوحة زنكنة بين عالمي الحداثة والتقليد أو السير على خطى الحداثة الشكلية دون تمثل محاورها وأساسياتها يعرقل طريق تقدم زنكنة في تأسيس عالم روائي يتسم بتفرده وخصوصيته الفنية المتألقة .

* إنهمك الروائي في تغطية بعض الأحداث ومواقف الشخصيات وأفعالها بمسوح من الرمز والأيماء ذي دلالات وأبعاد تنسجم مع الفضاء التي أسسها الروائي، لدعم أفكاره وقضاياها، لكن مغالاته وإصراره على إستعمال أنماط متشابهة، من الرموز والأحوال تستهلك رمزية الحالة، وتجعلها إشارة على جذب المخيلة ومحدودية الدلالة ، إذ يفقد الرمز فنائه وجماليته كلما يتكرر في قوالب وسياقات متشابهة ، ولاسيما في تصويره لشخصيات (هم) وأبعادها المختلفة.

كما ويلاحظ الباحث ان المخيلة الإبداعية للروائي تتمتع بالبراعة والقوة في تضخيم الهواجس والاحلام والكوابيس والتفنن في اصطناع إبراز قوة الأعداء، وفي إظهار أبطال رواياته كملاحقين مضطهدين، فعبر تضخيم المظالم التي تواجهها شخصياته، وإبرازها كضحايا لقساوة الواقع، يبحث زكنة عن مبررات الإغتراب النفسي والروحي عن الواقع الذي ينتج هذه الظواهر الكابحة ، واليأس من تحقيق التطلعات الإنسانية بإستمرار .

* ان محيي الدين زكنة له إمام نظري متكامل بالبناء الروائي، ويشخص بدقة متناهية مسؤولية الشخصيات الروائية ، وأدوارها ومهامها وعلاقتها بالزمان والمكان والأحداث، حيث معرفته الدقيقة بآليات التنظير الروائي والإيغال في تفاصيلها ، تقرب أجواء روايته (هم ويبقى الحب علامة) و (بحثاً عن مدينة أخرى) ، من الشكلية والتباعد نوعاً ما، عن الرواء والعفوية التي تمنح الرواية قوة جذب المتلقي وإنفعاله بها، ومتابعته المتلهفة لمصائر شخصياتها، وأحداثها .

* ان الروائي مغرم بتوزيع احداث الرواية على عناوين فردية وتقسيمات ش